

شفاء الصدور

أيها القارئ الكريم:

إن النفس الإنسانية راغبة طالبة. لا تقف بما الرغبة عند حد، ولا يهدأ الطلب وإن عجزت. فما أكثر ما تحوي صدور الناس من حاجات، وما يدور في نفوسهم من رغبات وتطلعات. والصدور ينالها من المرض - والحالة هذه - ما تحتاج معه إلى شفاء، ويغشاها من ظلمات الهوى ما لا تخرج منه إلا بنور وضياء.

وشفاء الصدور فيما أنزل الله على نبيه ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾^(١).

وحياتها ونورها فيه ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ^٣ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾^(٤)، ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٥)

نعم: تختلج في الصدور أمور وأمور، وتزحمها رغبات وتطلعات. والأمل يولد صغيراً ثم يكبر. والأجل يكون كبيراً ثم يصغر. قد لا يبقى من الأجل المحدود إلا

(١) يونس : من الآية ٥٧.

(٢) الشورى : ٥٢، ٥٣.

(٣) الأنعام : ١٢٢.

سويغات، والأمل هناك يهيم بالإنسان فيما يشتهي ويرغب.
وليس من الميسور أن يخضع الأمل للأجل. ولكن من الميسور أن ينضبط الأمل
بضابط الشرع. حتى لا يحوم الإنسان حول المشتبهات أو يقع في المحرمات.



كم في صدور الناس من جهل وشك وشك ونفاق، كم فيها من غل وغش،
وجشع وطمع. كم وكم مما لا يعلم سرُّه إلا العليم الخبير. الذي يعلم ما تبديه
النفوس وما تخفيه، ويستوي عنده السر والعلن ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۖ
إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١)

وما في الصدور لا يتم شفاؤه إلا منه، وما في النفوس من ظلم أو ظلام لا
ينقشع إلا بنوره ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (٢)

والمرض تختلف درجاته، وتتفاوت أنواعه، ويتباين الناس في أمره.
والقرآن الكريم قد جعله الله شفاءً لما في الصدور مهما تفاوت المرض
واختلفت درجاته.

إن الكفر هو أخطرُ الأمراض وأشدّها فتكاً بالإنسانية، والله - جَلَّ وَعَلَا -
يطالب الناس بالإيمان وهو غني عنهم، ولا يرضى لعباده الكفر. وكلُّ نفس تحمل يوم
القيامة وزرها، وتُسأل عن عملها، والله - جَلَّ وَعَلَا - قد بين لعباده ما يرضاه لهم
وما لا يرضاه؛ رحمةً بهم.

(١) الملك : ١٣.

(٢) النور : من الآية ٤٠.

وعندما تقرأ الآية الكريمة من كتاب الله ﷻ تراها وقد لامست القلوب فلم تترك مجالاً للإنسان أن يبدى من الأمر ما يضمن خلافة؛ فإن الصدور إذا انطوت عن الناس فإن الله يعلم السر وأخفى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝ ﴾ ^(١) فليس أمام الإنسان إلا الإخلاص، والإخلاص فحسب ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۖ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ ﴾ ^(٢)

إن القرآن الكريم يُقدِّم للإنسان زاد المعرفة الصادقة، ومن هذه المعرفة لله ﷻ يتحدد سلوك الإنسان. ويستقيم سعيه فلا يرى مع الضر ضراراً، ومع النعمة ناسياً وتاركاً يتخذ من دون الله أنداداً ليضل عن سبيل الله.

هذا الوباء النفسي الخطير لا يُحسم إلا بالمعرفة الصادقة لله والإخلاص له. ويمكنك أن تتدبر كتاب ربك، لتعرف علل النفوس وعلاجها، وتدرك أن علاج النفس لا يتم إلا من داخلها حيث تنطوي الصدور على ما فيها، وتنبعث النفس بدافع منها. ولا يعلم ما في الصدور ويطلع على ما يدور فيها إلا مَنْ خلقها ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ

خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝ ﴾ ^(٣)

فلن يكون علاجها إلا منه.

(١) ق : ١٦ .

(٢) الرمر : ٧ .

(٣) الملك : ١٤ .

والذين ينشدون علاجاً للنفوس بعيداً عما حدده الله - جَلَّ وَعَلَا - إنما يلهثون وراء سراب خادع، كلما ظنوا الاقتراب منه ازداد بُعداً، وانتهى كل مخدوع بغير ما أنزل انتهى في النهاية إلى الحق ووجد حسابه وجزاءه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝﴾^(١)

إن ما في الصدور يتحدد به سلوك الإنسان، ولا شفاء للصدور - التي تبعث بها الأهواء ويسيطر عليها الجهل والغفلة - لا شفاء لها إلا بما أنزل الله، وهو أعلم بما يصلحها ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ۝﴾^(٢)

والذين يعلمون الحق ويعملون به تستقيم نظرتهم إلى الحياة، ويعتدل سلوكهم وهم يحشون على بصيرة، فيخدعون بغدهم، والغد أمام أعينهم يُعدُّون أنفسهم له، ويقومون سلوكهم به.

أما الذين لا تنشرح صدورهم للحق فتراهم في أمرٍ مريخ. لا ثبات لهم ولا استقرار، تذهب بهم المنفعة في كل واد، وهم من أجلها ضارعون وقت الشدة غافلون عند الرخاء. يُسيطر عليهم الهوى وتغمرهم نشوة المتاع ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوَ إِلَيْهِ

(١) النور : ٣٩.

(٢) يونس : من الآية ٥٧.

مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۚ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ ۖ إِنَّاءَ الْيَلِّ سَاجِدًا وَقَآئِمًا مَحْذُورَ
الْآخِرَةِ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا
يَعْلَمُونَ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ (١)

هل يستوي الذين يعلمون توحيدهم وأمرهم ونهيهم، والذين لا يعلمون.
الذين يعلمون هم العاملون بعلمهم. إذ عبّر عنهم أوّلاً بالقانت، ثم نفى
المساواة بينه وبين غيره؛ ليكون تأكيداً له وتصريحاً بأنّ غير العامل ليس بعالم.
إن العلم هو الذي يرسخ في القلب ولا يمكن أن يخالفه صاحبه، بل ترى
سلوكه يمضي بداع منه، والقلب إذا صلح بالمعرفة الصادقة لله وحده صلحت الجوارح
واستقام أمرها « أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضَغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا
فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ » (٢)

أخي المسلم:

بهذا الوحي الرباني تطهر القلوب ويستقيم السلوك. إن شفاء الصدور من كل
داء لن يكون إلا بما أنزل الله. وعليك أن تتابع - في مجال التجربة العملية - سلوك
الناس، وترى في واقعهم العبرة والعظة.
إذا تأملت ما كان عليه الناس في جاهليتهم، وقارنت بينه وبين ما صاروا إليه
يعد إسلامهم رأيت عجباً.

(١) الزمر : ٨ ، ٩ .

(٢) متفق عليه.

كان أهل الجاهلية يتخبطون في ظلام الشرك وظلماته، فما أن استجابوا لنداء الله حتى انبعثت فيهم الحياة، فرأت الدنيا ناساً فيهم عافية الإيمان وقوة اليقين، رافعي الرءوس أعزاء النفوس، لا تُدِلُّهم شهوة ولا تأسرهم منفعة، ينشدون الدنيا كلها عدلاً وبراً وسلاماً ورحمة، بعد أن كانت تأسرهم عصبية الجاهلية وتفاخرها بالآباء.

سلمت الصدور من علل الشرك بدواء الإيمان، فصحَّت النفوس وسلمت القلوب وتحررت الإرادة فلم تؤسر بقيد من زهرة الحياة ومتاعها، فحققت أعظم حضارة إنسانية عرفها الإنسان وشهدتها التاريخ.

نعم، تحررت الإرادة من قيود الهوى ومضت في الكون - متسقة معه - تسبح بحمد الله - فتحول الكون كله إلى محراب للمؤمن يعبد فيه ربه. بعد أن تخلص من قيود الذل والخضوع أمام حجر أو شجر أو بشر. ورأت الدنيا ناساً مجاهدين في سبيل المؤمنين يرفعون راية الحق ويحرسون ميزان العدل، ويطاردون لصوص البغي، حتى أمن الناس على أنفسهم ومقدساتهم.

مَكَنَ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ فَشَكَرُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴿١﴾ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا
الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢﴾^(١)
قلت: يمكنك أن تقارن بين ما كان عليه الناس في جاهليتهم وبين ما صاروا إليه بعد إسلامهم؛ لتدرك ما يحققه هذا القرآن العظيم من شفاء لما في الصدور. وإذا سلمت صدور الناس وصحت نفوسهم رأيت الأثر واضحاً في الأعمال والسلوك. إن رأيتهم يؤثرون رضا الله على كل شيء، فاعلم أن صدورهم قد سلمت.

(١) الحج : من الآية ٤١.

إن رأيتهم يذكرون ربهم ولا ينسون غدهم فاعلم أنها القلوب قد آمنت
فخضعت لها الجوارح.

إن رأيتهم وزهرة الحياة في أيديهم لا تفتنهم، فاعلم أن القلوب غنية بما هو
أبقى وأدوم.

أما إذا رأيت الناس وقد أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات.
إذا رأيتهم والشح يأسر نفوسهم والغفلة تسيطر على حياتهم.
إذا رأيتهم ولا شاغل لهم إلا ما يحصلونه من دنياهم، فاعلم أن القلوب
مريضة.

وأن الصدور يصرعها حب الدنيا وكراهية الموت.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي
الْصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ
فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾^(١)



(١) يونس : ٥٧ ، ٥٨ .